العمر والتدابير الصحيّة

ترى في الناس عجبًا لا تكاد تعلم سببهُ فان زيدًا التاجر يقيم الحرّاس على باب مخزنهِ نهارًا وليلاً ويسلحهم بالعدّة الكاملة وينفق عليهم النفقات الطائلة خوفًا من لص يطرق الباب . ولخزنهِ باب آخر لا حارس عليهِ ولا قفلَ لهُ واللصوص يتناوبونهُ نهارًا وليلاً ويسلبون البضائع منهُ في رائعة النهار وزيد غافل عن ذلك متلاهٍ عنهُ . وهذا شأن حكومات الارض ولا سيّما في بلاد المشرق فانها تعبئُ الجنود وتقيم الشحنة مخافةً من عدوٍّ مهاجمٍ يقتل واحدًا من رجالها والموت يفتك بالالوف منهم كل يوم وهي لو احكمت امرها لنجت نصفهم من مخالبهِ لا لانهُ يمكن للقوّة البشريّة ان تنجي الانسان من الموت بل لانهُ يمكنها ان تنجيهُ من الموت الباكر . فانهُ قد حُتم على جميع الناس ان يموتوا ولكن لم يحتم عليهم ان يموتوا في نصف ايامهم وادلتنا على ذلك كثيرة لا تُرَدُّ أقطعُها ان متوسط عمر الانسان في مدن القطر المصري نحو سبع عشرة سنة ومتوسط عمرهِ في ممالك اوربا نحو اربعين سنة . ولا يُعقل ان ذلك يحدث اعتباطًا لغير سبب لا سيّما وان متوسط عمر الاوربيين المقيمين في مدن القطر المصري نحو اربعين سنة ايضًا

وقولنا ان متوسط العمر سبع عشرة سنة او اربعون سنة قد لا يقدّرهُ القارئ حق قدرهِ فنعبّر عنهُ بصورة اخرى : لنفرض ان سكان القطر المصري سبعة ملايين نفس وان متوسط العمر فيهِ ١٧ سنة فيكون متوسط الوفيات فيهِ ٦٠ في الالف في السنة اي انهُ يموت ٦٠ نفسًا من كل الف نفس في السنة فيموت من السكان كلهم ٤٢٠ الف نفس كل سنة . فلو كان متوسط العمر فيهِ اربعين سنة لكان متوسط الوفيات فيهِ ٢٥ في الالف في السنة ولتوفي من سكانهِ كل عام ١٧٥ الفًا فقط والفرق بين العددين ٢٤٥ الف نفس . فاذا امكن ان يقلّ عدد الوفيات عن ٦٠ في الالف ويصير ٢٥ في الالف نكون قد انقذنا كل سنة ٢٤٥ الف نفس من الموت الباكر وذلك ممكن بالتدابير الصحيّة كما سيجيء . فالقطر المصري يفقد كل سنة ٢٤٥ الف نفس بسبب التغاضي عن هذه التدابير الصحيّة . وهنا الباب الواسع الذي يدخلهُ لصوص الموت نهارًا وليلاً ويفتكون بالسكان فتكًا ذريعًا . والحراس والشرطة قائمون على باب آخر بعددهم وعددهم وخيلهم ورجلهم يحفظون السكان كما يحفظون حدقات عيونهم وهم غافلون عن الباب الاوّل

ولا يثبت شيء مما تقدّم الاّ بالاحصاء. وقد انتبهت ممالك الارض الى احصاء شعوبها منذ الازمنة القديمة فالملك داود احصى بني اسرائيل قبل الميلاد باكثر من الف سنة والرومانيون شرعوا في احصاء شعوبهم قبل الميلاد بنحو خمس مئة سنة والبدو نحو الف سنة يسجلون المواليد والوفيات. ويظهر من سجلاتهم ان متوسط عمر الانسان كان في زمانهم نحو ثلاثين سنة. ثم أُهمل امر الاحصاء في القرون الوسطى كما أُهمل كل امر مدنية عامة ولم يُنتبه الى متوسط عمر الانسان في بلاد الانكليز الاّ في اوائل هذا القرن وذلك لمّا رأت الحكومة ان الاموال التي تدفعها سنويات لمدايينها قد زادت عن تقديرها فانها كانت تستدين المال من الناس وتدفعه لهم اقساطًا سنويّة ما داموا احياء فلما طالت اعمارهم زاد مقدار السنويات التي تدفعها ولدى البحث المدقق وُجد ان متوسط عمر الانسان في بلاد الانكليز زاد الثلث بين سنة ١٧٢٥ وسنة ١٨٢٥

وبحث البارون دلسر وسّس جمعيّة باريس الفيلنثروبية عن متوسط عمر الانسان في مدينة باريس من القرن الرابع عشر الى الآن فوجدانه كان ست عشرة سنة في القرن الرابع عشر. وثمانيًا وعشرين سنة في القرن السابع عشر واثنتين وثلاثين سنة في الربع الاول من القرن التاسع عشر. وكان متوسط العمر في فرنسا كلها سنة ١٧٨١ تسعًا وعشرين سنة ومن سنة ١٨٢٤ الى ١٨٢٩ تسعًا وثلاثين سنة وعليه فقد تضاعف عمر الانسان في فرنسا في اقل من خمسة قرون

اما التدابير التي استعملت في اوربا واميركا وثبت انها اطالت متوسط عمر الانسان فهي

اولاً نزح المياه الراكدة وازالة المستنقعات من الارض. فقد عُلم من قديم الزمان ان الاراضي الكثيرة المستنقعات الرطبة التربة تكثر فيها الحميات والامراض الفتّالة على انواعها وثبت ذلك بالاحصاء في مدينتي برمنهام ولفربول ببلاد الانكليز فنزح المياه على اتمّ في المدينة الاولى ومتوسط العمر فيها اربعون سنة وهو سهل في المدينة الثانية مع ما فيها من التدابير الصحيّة ومتوسط العمر فيها احدى وثلاثون سنة

ثانيًا نقاوة الماء وهي ايضًا من الوسائط المرعيّة من قديم الزمان حتّى ان المصريين القدماء كانوا يعاقبون من يرمي جثة في النيل اشدّ العقاب لكي لا يفسد ماؤه. ويرجح البعض ان المصريين استنبطوا التحنيط لغاية صحيّة وهي عدم افساد الماء والهواء باجسام الموتى. وقد ثبت الآن انه اذا لم يكن ماء الشرب نقيًا ضعف بوالجسم رويدًا رويدًا حتّى اذا دخلته جراثيم المرض لم يستطع مقاومتها ناهيك عن ان الماء غير النقي قد يحوي كثيرًا من

جراثيم الامراض المعدية التي تصل البنا من مبرزات المرضى ومن غسل امتعتهم فيه . وقد ثبت ان جراثيم الهواء الاصفر والتيفويد تتصل بماء الشرب وتفتك بالذين يشربونه ولذلك اهتمت المدن الكبيرة بجلب الماء النقي في انابيب محكمة من الحديد وتوزيعه على البيوت والشوارع لكي يبقى نقيًّا

ثانيًا نقاوة الهواء . ما من احد يرضى ان يأكل طعامًا اكله انسان آخر قبله ثم تقيأه من جوفه او يشرب ماء شربه انسان آخر قبله ثم بزقه من فمه ولكن ما من احد يحاذر من تنفس هواء تنفسه انسان آخر قبله . وهذا خطأ مبين لان فساد الهواء يتنفس الناس له اشد من فساد الطعام والشراب وقتلى الهواء الفاسد اكثر من قتلى الطعام والشراب الفاسدين بل اكثر من قتلى الحروب . قيل انه كان في مستشفى كبير من مستشفيات الاولاد ببلاد الانكليز عدد كبير منهم ولم يكن الهواء مطلقًا فيه فكان يموت منهم ٣٨ في المئة في السنة ثم فُتحت كوى المستشفى وجُدِّد هواؤه فصار عدد الموتى فيه ٢٦ في الالف في السنة اي اقل صار عشر ما كان اولاً

رابعًا تنظيم البيوت . فقد ثبت بالادلة القاطعة ان عشش (اكواخ) الطين المبنية في المنخفضات او بقرب المستنقعات تسم اجسام سكانها فيكثر الموت بينهم بخلاف المبنية بالحجر او بالاجر المشوي في اماكن مرتفعة جافة فان سكانها يكونون اجود صحة واطول عمرًا . مثال ذلك ان متوسط العمر بين سكان اكواخ الطين في ارلندا ستٌّ وعشرون سنة ومتوسطه بين سكان الاكواخ المنتظمة المرتفعة عن الارض في انكلترا من خمسين سنة الى خمس وخمسين . وكان معدَّل الوفيات في بعض ازقة غلاسكو الفذرة اثنتين واربعين في الالف فنظِّمت واجريت فيها التدابير الصحية فهبط عدد الوفيات الى ثمانٍ وعشرين في الالف

خامسًا نزح مراحيض المدن . وهذا من الاهمية بمكان عظيم وقد ظهرت ثمرته في كثير من المدن فكان متوسط الوفيات في مدينة بوستن باميركا قبل نزح مراحيضها احدى وثلاثين في الالف فصار بعد نزحها عشرين في الالف . وكان عدد الوفيات في مدينة كردوبدن بانكلترا ثمانيًا وعشرين في الالف قبل نزح مراحيضها فصار بعده ثلاث عشرة في الالف

سادسًا تقدُّم فني الطب والجراحة واعتماد الناس على الاطباء والجراحين في مداواة امراضهم ومواساة جراحهم . وبناء المستشفيات لمعالجة الفقراء والمساكين . وانتشار التطعيم لمقاومة الجدري واجبار الناس كلهم على تطعيم اولادهم فان الجدري من افتك الامراض

وكان قتلاه يعدون بالملايين كل سنة . وقد بلغ قتلاه مئتي الف نفس كل سنة في مدينة لندن في القرن الماضي فضلاً عن الذين تركهم عميًا وطرشًا وشوّه وجوههم . فقابِل ذلك بما حدث في مدينة نيو يورك سنة ١٨٧٨ فانه لم يصب من سكانها بالجدري تلك السنة سوى اربعة عشر شخصًا وعددهم مليون ومئة الف نفس . ويقال ان الجنود الالمانية على كثرة عددهم لا يصاب احد منهم بالجدري وذلك لانهم كلهم مجبرون ان يتطعموا كل مدة . وقس على ذلك معالجة الكلب بالتطعيم . واتخاذ التدابير الصحية للوقاية من الهواء الاصفر وغيره من الاوبئة واكتشاف الكينا والحامض الكربوليك وغيرهما من الادوية الشافية للامراض او الواقية منها كل ذلك قد قلّل الموت وطوّل العمر . ولا نطيل الكلام في فائدة الوسائط الطبية والجراحية فانها صارت معلومة عند الجمهور

سابعًا تقدُّم العلوم الطبيعية عمومًا فبها انتشت الفلاحة والزراعة وكثرت الخيرات على الناس فلم يعد يخشى ان يموتوا جوعًا او تضعف ابدانهم لقلة الطعام وبها استعيض عن العمال بالآلات وهي لا تأكل ولا تشرب فقلّت مشاق الحياة بسببها وتوفّرت بها الخيرات . وبالعلوم الطبيعية أتقنت وسائط النقل برًا وبحرًا وسهل على اهالي الشام مثلاً ان يجلبوا الحنطة من روسيا وعلى اهالي انكلترا ان يجلبوها من الهند واستراليا فلم يبق خوف من القحط والمجاعات التي كانت تفتك بالناس في الزمان الغابر وبهذه الاسباب كلها قد طال عمر الانسان في اكثر البلدان

ومن تدبّر الحقائق المتقدمة وعلم ان ممالك الارض تتفق على التدابير الصحية ومقاومة الامراض والاوبئة شيئًا لا يذكر في جنب ما تنفقه على جنودها وبوارجها وانها حتى الآن لم تتبع في التدابير الصحية نظامًا يقابِل بنظام جنودها استغرب ما يراه من النجاح في تقليل الوفيات واطالة العمر وحكم ان اهتمام الناس بحفظ صحتهم من عوادي الادواء يزيد على اهتمامهم بحفظ ثغور بلادهم من عوادي الاعداء . ومتى انقلبت الحال الحاضرة فأُعطيت ميزانية الحربية للصحة وميزانية الصحة للحربية يبلغ متوسط عمر الانسان مئة عام فاكثر بحياها بلا الم ولا وجع

وقد ثبت في هذه الاثناء ان الهواء الاصفر ظهر بين الحجاج القادمين الى مكة المكرمة وثبت ايضًا ان التدابير الصحية التي قامت بها الحكومة المصرية في العام الماضي منعت هذا الوباء من ان يدخل بلادها وقلّلت عدد الوفيات فيها بالامراض العادية اقلة . والحكيم من استناد بالتجارب فعسى انها تجري في هذا العام على ما جرت عليه في العام الماضي وتواظب على الاهتمام بامر الصحة ولو انفقت على ذلك النفقات الطائلة